العودة المتخيلة

ما معنى العودة؟

هل العودة مجرد حنين إلى ماضٍ لا يستعاد، أم هي رؤية وحلم وأفق مستقبلي؟

اليوم، وسط حمى محاولات محو القضية الفلسطينية، والتي وصلت إلى ذروتها في المشروع الأميركي ــ الصهيوني لإلغاء وجود اللاجئين وتحويلهم إلى مغيبين، نشعر بالحاجة إلى تأكيد البديهيات والتمسك بالحق والحقيقة.

لن نتعامل مع الذكرى السبعين للنكبة بصفتها ذاكرة، فالنكبة ليست ذاكرة مرتبطة بتاريخ معين هو الخامس عشر من أيار/مايو ١٩٤٨، وإنما هي مسار لم يتوقف لحظة. فالشعب الفلسطيني يعيش نكبته المستمرة وسط نكبات العرب منذ ذلك التاريخ، ولذلك كان جوابنا الدائم هو ربط النكبة بالمقاومة. فالنكبة منذ وعد بلفور في سنة ١٩١٧ كانت تواجَه بمقاومة اتخذت أسماء وأشكالاً متعددة، لكنها لم تتوقف.

غير أن هذا الربط بين النكبة والمقاومة لا يتبلور إلاّ إذا أضيفت إليه العودة، لأن العودة هي الأفق الذي يعطي التضحيات الهائلة معناها العميق.

طموح هذا الملف هو محاولة تغيير منظور قراءة النكبة بصفتها ماضياً يُستعاد وذاكرة يجري إحياؤها. النكبة ليست الماضي الفلسطيني، مثلما صيغ في أدبياتنا التي تحدّت خطاب المنتصر، ونجحت في تحويل حكاية المهزومين إلى ندٍّ للتاريخ الذي صنعته القوة.

النكبة حاضر تعيشه الفلسطينيات والفلسطينيون في حيواتهم اليومية، داخل فلسطين المحتلة وفي المنافي والشتات.

غير أن الرواية الفلسطينية ستبقى ناقصة إذا لم تخرج عن أبد النكبة إلى رؤية المستقبل بعيون العودة.

ما هي العودة، وكيف نتخيلها؟ هل يعود اللاجئون والمنفيون، حين يعودون، إلى ماضٍ ذهبي صنعه الحنين وطفولة الذاكرة التي تغلّف الأشياء بوهم جنّة مفقودة، أم يعودون إلى مستقبل يصنعونه بأيديهم، وهو مستقبل مجبول بالاحتمالات والتناقضات؟

لامس الفكر السياسي الفلسطيني هذه المسألة من دون أن يتعمق فيها، فالاقتراحات التي بدأت بالدولة الديمقراطية، ثم ضمرت طموحاتها في فكرة دولتين لشعبين، تعود اليوم بصورة عامة وغير ملموسة على شكل دولة ثنائية القومية.

أمّا الأدب والثقافة فبقيا يحومان حول فكرة العودة، من دون أن يقدما رؤية متخيلة عن عودة محتملة.

عندما يتكلم الفلسطينيون عن حق العودة فإنهم لا يتكلمون فقط عن حق عودة الذين

طُـردوا خـارج فلسطين إلى بلدهم، فاللاجئون داخل وطنهم فـي مخيمات الضفة الغربية وغزة، والمهجرون داخل الخط الأخضر، معنيّون مثل غيرهم من اللاجئين والمنفيين بحق العودة.

بـل نستطيـع القول إن العودة ممكنة، لأن نصف الشعـب الفلسطيني لا يزال في أرضه، وهو بذلك يصنع جسر العبور من المنافي إلى الأرض.

إن مـا يميز حق عودة الفلسطينيين ممّا يسمى "قانون العودة" الإسرائيلي، هو أن عودة الفلسطينييـن ليسـت جزءاً من بناء أسطـوري يجري إسقاطه على الواقـع، كما أنها ليست غـزواً لأرضـ بعيدة؛ فجذورهـا موجودة في الباقين داخل وطنهـم. البقاء هو الذي يعطي حق العودة احتمالها التاريخي، على الرغم من الضعف والوهن اللذين أصيبت بهما البنية السياسية الفلسطينية.

لذلك فإن المقارنة بين الغزو الذي أخذ شكل حلم يوتوبي منذ كتاب هيرتسل "الأرض الجديـدة ـ القديمـة"، وبين فقر الأدبيات الفلسطينية المتعلقـة بالعودة، لا يُجدي. فالفرق بيـن غـزو كان ولا يزال جزءاً من مشروع كولونيالي حـوّل الأسطورة التوراتية إلى وحش دموي، وبين حق شعب في الحرية وتقرير المصير، شاسع وجذري.

العـودة الفلسطينيـة مرتبطـة بـأرضـ حقيقية لا بـأرضـ متخيلة أو يجـري اختراعها لتناسب طموح الغزاة.

هـدف هـذا الملف هو فتـح الباب لتخيل العودة بهـدف تأسيسها على قاعـدة إنسانية وأخلاقية، كي تكون تتويجاً لمشروع تحرري هدفه الانعتاق والعدالة.

معنى العودة يصنعه العائدون، ففلسطين ليست أسطورة كي تتجمد في قوالب جاهزة، إنها حقيقة، والحقيقة تتغير. بلاغة التاريخ وقسوته تقولان لنا إن فلسطين اليوم، المثخنة بالجراح، مؤهلة كي تتحول إلى أفق ليس لحرية الفلسطينيين وحدهم، بل لحرية الشعوب المضطهدة كافة.

مقاومـة نظـام الأبارتهايد الصهيوني، يجب أن تتحول إلـى مقاومة شاملة مساحتها العالم بأسره.

طلبنا مشاركة عشرات الكتّاب والمثقفين في هذا الملف، وقد استجاب البعض لدعوتنا، بينما لم يستجب البعض الآخر، إمّا لأنه رأى صعوبة في الأمر، وإمّا لأنه آثر التريث. غير أن مـا نريـد تأكيـده هنا، هو أن مجلتنا فتحت الباب. سننشر فـي العدد المقبل مساهمات نصري حجاج ومايا أبو الحيات وشفيق ناظم الغبرا إلى جانب مساهمات جديدة نحن في انتظارها. ■